الباب الرابع

عصر العرب الذهبى بالاندلس

الفصل الأول

عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)

(٣٠٠ — ٣٥٠ هـ — ٩١٢ — ٩٦١ م)

اعتلى عبد الرحمن عرش البلاد بعد وفاة جده وهو ابن محمد ابن الامير عبدالله الذى قتل فى ريعان شبابه بسبب خروجه على الامير كما مر بنا ، وامه مسيحية تسمى مريم او مزنة ، وقد عنى جده بتربيته فى القصر ، وكان يحبه ويؤثره على بنيه حتى بلغ اشده ، فكان يرشحه لولاية الامر بعده ، ويقيمه احيانا مقامه لاستقبال الجنود والزوار ، ثم أوصى بولاية العهد له امام الامراء وولاة الأقاليم فالتفت حوله قلوب الرعية ، واحبه الناس لجمال سجاياه الفطرية ، وكمال مزاياه الكسبية

يقول كندى « قد احسن مربوه تربيته منذ نعومة اظفاره ، فأقرأوه القرآن ولما بلغ الثامنة علموه السنة والنحو والشعر والامثال ، وتاريخ حياة الملوك وسياسة الملك ، وعلوما اخرى اجتماعية ، ثم علموه ركوب الخيل وفن الحرب وضروب الفروسية عند ما اخذ يخطو فى الحادية عشرة

جلس عبد الرحمن على كرسى الامارة وهو فى السنة الثانية والعشرين من

عمره ، ولم ينـازعه الحـكم أحد من أعمامه ولا أعمام أبيه بل بايعه الجميع ، وقابل الشعب جلوسه بابتهاج منقطع النظير ، ووافق يوم توليته الملك يوم الخميس مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠هـ (١٥ اكتوبر سنة ٩١٢ م) وفى ذلك اليوم يقول احمد ابن عبد ربه من قصيدة

بدا الهلال جديدا والملك غض جديد
يانعمة الله زيدى ان كان فيك مزيد
ان كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد

سياسته الداخلية :

جعل سياسته من بداية أمره مقامة على الصراحة والجرأة والثبات ، وعدل عن سياسة الوفاق والتردد التى اتبعها أجداده فى معاملة الثائرين والعصاة ، وأرسل إلى حكام الأقاليم الخارجين على قرطبة أن يسلموا حصونهم وبلدانهم ويعلنوا خضوعهم وطاعتهم ، ووعد من أسرع إلى الطاعة العفو ، وتوعد من يتردد مر الانتقـام ، وكان يبدو أول الامر ان هذه الخطة ستجر عليه تساند أعدائه وتحالفهم ضده لصد هجماته ، ولـكن لم يحدث شىء من ذلك بسبب خلو البلاد من زعمائها الذين قادوا الثورة فى أول انفجارها ، وكانوا زعماء محنكين وقادة قادرين ، فبعد سعيد بن جودى وكريب وابن خلدون وابراهيم بن الحجاج لم يكن هناك من يخلفهم ويملأ الفراغ الذى خلفوه ، أما زعماء المولدين من الاسبانيين فكانوا قد بلغوا من الـكبر عتيا وهدت الشيخوخة كيانهم ، وأصبح الشعب زاهدا فى تسيطرهم على شئونه راغبا عن قيادتهم ، يتوق إلى وضع حد للفتن والفوضى لتجنب ويلات الحرب الأهلية وماجرته من خراب ودمار ، وفت فى عضده ماشهده من تبدل الحال وثبات عرش

السلطان على كافة الغير واحداث الزمن ، فأخلد إلى السكينة وأعلن ولاءه للسلطان فسلمت غرناطة والبيرة ، وسقطت جيان واستسلمت أرقيدونه ، وهنا يعترف المؤرخون المسيحيون بأن عبد الرحمن الثالث عامل المستسلمين من المسيحيين بكل انصاف وعدالة

وامتنع الجبليون عن الانضواء تحت لواء ابن حفصون ، فاضطر إلى استئجار الجند المرتزقة من بربر طنجة ، وهؤلاء كانوا دائما على استعداد للتسلل من صفوف القتال إلى صفوف الأعداء نظير رشوة أو زيادة أجر ، ولما كان مثل هؤلاء الاعوان لايصح الركون اليهم ، ولما كان هذا غير خاف على ابن حفصون فانا نراه فى مستهل ٩٠٩ م يعترف بسيادة عبيد الله الشيعى (سعيد بن عبد الله القداح) وكان هذا ينازع بنى الاغلب السيادة على بلاد البربر ، هذا إلى ما آل اليه الاسبان فى منطقة غرناطة وحول البيرة وجيان من تدهور خلقى وانحطاط ، فقد انقلبوا من طلاب حرية واستقلال إلى قطاع طرق وخوارج على كل قانون ينقضون كالنسور على كل عابر مهما كان دينه ومعتقداته ، وينهبون الصديق والعدو بلا فارق ، فعم السخط عليهم وتطلع الكل إلى السلطان يبتغون أن يخلصهم من شرور هذه العصابات ، وكان ابن حفصون أول الأمر معدودا كزعيم سياسى ينضوى تحت لوائه كل اسبانى مسلما كان أو مسيحيا ، أما بعد أن ارتد عن الاسلام هو وحليفه الاكبر ابن مستنه و بنى الكنانش الفخمة فقد أصبح صموئيل أو ابن حفصون كما سمى نفسه لايثق إلا بالمسيحيين ، وأصبح وكره (حصن بيشتر) بؤرة التعصب ، واندمجت ابنته أرجنتينا فى زمرة الراهبات ، وكان هذا نذيرا بانقسام أنصاره على أنفسهم وقيام النزاع بين المسيحيين والمسلمين منهم و بدأت أستجة بالتسليم لليد حاجب عبد الرحمن فى ٣١ ديسمبر ٩١٢ م بعد

ارتقائه العرش بشهرين ، وقاد عبد الرحمن بعد ذلك جنده بنفسه فنفث ذلك فيهم روح الاستبسال ، فارسل كتيبة من جنده إلى أرقيدونة وأخضع هو سعيدبن هذيل فى قصره ، وكان محالفا لصموئيل . وتقاطر أمراء القصور يستسلمون و ينزلون عن حصونهم لعبد الرحمن . فكان يرسلهم وعيالهم إلى قرطبة و ينصب العمال بدلا منهم . وسلمت اليه مقاطعة البيرة . فسار منها إلى منطقة جبال سيرا نفادا . وصد هجوم صموئيل على مدينة البيرة .

وهكذا استطاع فى شهرين أن يؤمن أهل غرناطة والبيرة على أنفسهم من شرور الأمراء السلابين ، وأن يخضع المسيحيين الثائرين . ثم فكر عبد الرحمن فى أشبيلية ، وكان هناك نزاع حول إمارتها بعد وفاة ابراهيم بن حجاج ، فذهب محمد بن حجاج إلى قرطبة واعترف بخلافة عبد الرحمن ، وكان صموئيل يمنى نفسه بالدخول فى النزاع واختطاف جزء من الغنيمة فزحف على أشبيلية ولكن عبد الرحمن هزمه فارتد الى بيشتر .

اخضاع ريه (ريجيو)

وعزم عبد الرحمن على الزحف على ريه (ريجيو) ففتح حصونها ، واستأمنه أهلها فأمنهم . ولم يبق أمامه إلا حصن طرش وكان فيه ابن حفصون نفسه (صموئيل) ، وما كان هذا يتوقع أن يفوز عبد الرحمن سريعا فى تلك البقاع ، لأن صموئيل قد نشر فيها لواء العصيان ونفخ فى أرجائها روح النصرانية حتى كاد ظل الاسلام يتقلص من بوعها ، لكن سهل فوز عبد الرحمن ما شهده فيه نصارى اسبانيا من معاملة رعاياه بالحسنى والعدل ، ومراعاة العهود والمواثيق ، وتخفيفه للضرائب والمغارم التى طالما أرهقت الأهلين ، واستولى أسطوله على سفن ابن

حفصون التى كانت تنقل الأقوات والجند المرتزقة من أفريقية

ورأى صمؤئيل نفسه مغلوبا على أمره ففر إلى أفريقية علّه يجد فيها جندا يجمعهم فيزحف بهم لاسترداد بلاده ، وسار عبد الرحمن إلى قرمونه فاخضع ثورة شبت فيها ، ومر فى طريقه بالجزيرة الخضراء ثم شدونه قبل دخول قرمونه فى يونيه ٩١٤ م

وفى تلك السنة حل بالأندلس قحط مريع أودى بحياة الألوف من أهل قرطبه ، وكلت سواعد أهلها عن دفن الموتى فخفف عبد الرحمن من مصاب الناس وأكثر من الصدقات ، وكف عن الغزو تلك السنة ، ولم يلبث صمؤئيل أن توفى ٩١٧ م ، وطوى الموت شخصية قويه طالما أرهبت جنوب الاندلس ، ونفخت فيه روح الثورة وحب الاستقلال

عبد الرحمن سيد البلاد :

تم الأمر لعبد الرحمن بموت ابن حفصون ، وتخلص من شر خصم وألد عدو وكان لابن حفصون أربعة أولاد : جعفر وسليمان وعبد الرحمن وحفص وبنت هى أرجنتيا سابقة الذكر فاستسلم أحدهم حفص ودخل فى خدمة الخليفة ، أما اخوته الثلاثة فقد ظلوا يناوئون عبد الرحمن الواحد بعد الآخر ، وسعوا فى إتمام مابدأه ، أبوهم من تحرير الوطن الاسبانى ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وسقط حصن بيشتر وكر تلك العصابة ٩٢٨ م فاغرى الفقهاء الخليفة بنبش قبر صمؤئيل وابنه جعفر وأرسلت جثتاهما إلى قرطبة حيث صلبتا منكستين ، وضربت عنق الفتاة لأنها رفضت العود إلى الاسلام ، وأتم عبد الرحمن إخضاع الجهات الثائرة ، فاخضع بنى المهلب من البربر الثائرين فى البيرة ٩٢٤م وأخضع بلنسيه ، وفى ٩٢٦ م أخضع بنى ذى النون ، ورأى أن لاخوف حينئذ من الجنوب فوجه قواه إلى

جهات أخرى فاخضع تدمير وماردة و بطليوس معقل ابن مروان ، وكانت طليطلة ما أخضع ٩٣٢ م بعد حصار دام عامين ، وكان يمدها ملك ليون واستمر الحصار صيفا وشتاء ، و بنى عبد الرحمن حصنا اسمه الفتح تأوى اليه جنوده ، ثم شرع فى معالجة مساوىء الماضى ، فساوى بين المسلمين والمسيحيين ، وعمل على مزجهما ليكونا شعبا واحدا بلا اعتبار للفوارق الدينية أو الجنسية وفرح عبد الرحمن بهذا الفتح كفرحه بفتح مدينة بيشتر

وانتهت تلك الفتن بتوطيد دعائم الملكية وترسيخ نظمها ، ففازت بقهر أعدائها من العرب والبربر والاسبانيين نصارى ومولدين . وكان أمراء العرب وشيوخهم أكثر الثوار خسارة ، إذ فقدوا كل نفوذ لهم ، و بعد ان كانوا دعائم وأنصار تقييد السلطة الملكية أصبحوا ولا حيثية لهم فى الدولة ، ولا بأس لهم يخشى ، ولا سطوة تحسب الملكية لها حسابا ، وربما كان فى هذا بعض العزاء للاسبانيين الذين غلبتهم الملكية على أمرهم ، إذ انهم فى الواقع لم يثوروا بدافع الكراهية لشخص الملك بل كراهية للامراء من العرب الذين احتقروهم وأذلوهم وظلموهم

وأخيرا عمد عبد الرحمن إلى مزج عناصر المحكومين بلا فارق بينها فى الجنس والدين لتكوين شعب واحد وساوى بين جميع المحكومين ، وكان هذا فى حد ذاته كسبا للاسبانيين ، إذ لم يكونوا فى الحقيقة دعاة حرية فسيحة المدى ، فالحكم المطلق كان معروفا لديهم وقد الفوه مدة حكم القوط والرومان

حروبه الخارجية :

لم تكن مشاغل عبد الرحمن قاصرة على اخماد الثورات الداخلية التى كانت تضطرم فى داخل ملكه ، بل زاد فى مشاغله ومتاعبه أطماع دولتين خارجتين

أحداهما قديمة فى الشمال وهى دولة ليون ، والأخرى حديثة فى الجنوب وهى الدولة الفاطمية

مملكة ليون :

أولا — فى أثناء الفوضى التى سادت بلاد الاندلس على عهد عبد الله بن محمد تشجع المسيحيون فى جليقية واستورقة وكانتا بريا تحت قيادة الفونس الأول وزحزحوا البربر جنوبا إلى مصب نهر دورو كما مر بنا ، وعاد الفونسو بعد ذلك إلى الشمال ، وظل البربر يتقهقرون بعد ذلك أمام هجمات مسيحى الشمال حتى أخلوا سلمنقه ، واصبح الحد الفاصل بينهم وبين المسلمين خط يصل بانبلونة ووادى الحجارة بطليطلة على نهر التاجة ٧٥١ — ٧٥٤ م ، ولما ثارت الفتن والاضطرابات على عهد عبد الله بن محمد أصبحت ليون زعيمة الشمال المسيحى ونصيرة ثواره ، فأقامت الحصون المنيعة ، وزحفت مرة أخرى على المسلمين وزحزحتهم إلى نهر دورو ، وتحالفت ليون مع طليطلة ومع سانكو ملك نافار ، وأصبح المسلمون فى نظر المسيحيين غنيمة لا يمكن أن تفلت من أيديهم ، ودفعهم الغرور إلى التطلع نحو الجنوب وزحزحة المسلمين عنه حتى يلقوا بهم فى البحر من حيث أتوا ، وكان يزكى روح التعصب فيهم القسوس ، ولذا كانوا دائما قساة فى حروبهم ، وحوشاً فى معاملتهم مع سكان المدن من غير المحاربين لا يعرفون إلا الابادة والحرق والتخريب ، ولم يخطر لهم ببال قط أن يعاملوا المسلمين كما عاملوهم بالتسامح والحسنى. فماذا عسى يكون مصير الأندلس الاسلامية المتحضرة المزدهرة إذا سقطت فى أيدى هؤلاء الجهلاء المتعصبين الذين لا يعرفون النقود ، ويتجرون بالمبادلة ، ولا يعرفون القراءة والكتابة وان احتاجوا إلى مساح لأراضيهم لجأوا إلى المسلمين ، وإذا ذكرت مكتبة استعاذوا بالمسيح وعدوها رجسا من عمل الشيطان . لقد ألقى القدر

على عبد الرحمن عبء تأديب هؤلاء المتوحشين ، وانقاذ الحضارة الاسلامية من ويلاتهم ، وكان العبء فادحا حقا ، لأن الخليفة كان يجاهد الثوار من رعاياه وقت أن اضطرته الظروف إلى قمع مسيحى الشمال المتوحشين الذين ازدادوا قحة لما انسوه من ضعف الدوله الاسلامية وقرب انحلالها ، كما اضطرته الظروف ايضا إلى قمع برابرة افريقية المتوحشين الذين انقضوا على حلفاء الأندلس من أمراء المغرب واستولوا على أرجاء فسيحة فيها ، وظنوا بالأندلس الظنون ، وكانوا يعتقدون انها فى متناول أيديهم ، ولكن عبد الرحمن لم يضطرب ولم يتراجع أمام العبء الملقى عليه فأخضع رعاياه الثائرين ، ثم التفت إلى هؤلاء المتهجمين

فى عام ٩١٤ م استولى اوردونو الثانى ملك ليون على حصن بجوار بطليوس وخرب مقاطعة ماردة ، وكان يقتل جميع الأسرى و يسبى كل النساء والاطفال وارتاع أهالى بطليوس فجمعوا مالا وفيرا وقدموه اليه ليرجع عن مدينتهم ، فعاد مثقلا بالاسلاب إلى ما وراء نهر الدورو ، وانشأ فى مدينة ليون كنيسة للعذراء ، ومع ان بطليوس كانت إذ ذاك ثائرة على عبد الرحمن فانه لم يتقاعس عن حمايتها من غارات المسيحيين ، فأرسل جيشا بقيادة ابن أبى عبده ٩١٦م ، لتأديب المسيحيين فانتصر أول الأمر ، ولكن اوردونو هاجمه فهزمه هزيمة كبرى ، وفر من حوله جنوده البربر المرتزقة الذين جلبهم السلطان من طنجة والاسبانيون المولدون من أهل الثغور ذوى النفاق الذين لا يعتمد على ولائهم ، واختار ابن أبى عبده الثبات على الفرار ، فقاتل وحوله فريق من خاصته حتى قتل . ولم تقل هذه الهزيمة من عزيمة عبد الرحمن فأراد أن يسير بنفسه لقتال اوردونو ، ولكن غزوة الفاطميين لبلاد المغرب شغلته عن ذلك ، وخشى عبد الرحمن ان يولى الفاطميون وجوههم نحو اسبانيا ان تم لهم اخضاع بلاد المغرب ، فطفق يمد بالمساعدة امراء تلك البلاد

حتى يكون المغرب درءا لبلاد الاندلس ، فلما تغلب عبيدالله المهدى على افريقية كتب إلى سعيد بن صالح امير ناقور وهى مدينة بالمغرب على مقربة من البحر مكانها الآن مدينة المزمة — يدعوه إلى طاعته فرفض سعيد واحفظ هذا الرفض عبيد الله فسير قائده مصالة بن حبوس لحرب سعيد فهزم سعيد وقتل ٣٠٥ هـ وكان سعيد على احسن مودة مع الامويين بالاندلس . فدخل مصالة ناقور وقتل رجالها وسبى النساء والذرارى ، ونجا بنو سعيد لانهم فروا وركبوا البحر إلى الاندلس

ونزل الأمراء اللاجئون مالقة فأمر عبد الرحمن الناصر بالحفاوة بهم ، واختاروا البقاء فى مالقة ليكونوا على مقربة من مجرى الحوادث فى وطنهم ، وعلم بنو سعيد بعد ستة أشهر ان مصاله عاد إلى تاهرت وأقام بناقور قائدا من كتامة اسمه ذلول ، وان عسكر هذا القائد قد انفضوا من حوله ، وكان بنو سعيد ثلاثة : إدريس ، والمعتصم ، وصالح ، فامتطى كل منهم البحر فى سفينة فى ليلة واحدة ، واتفقوا على أن من يصل منهم إلى ناقور قبل أخويه يكون أميرا ، فسبق إلى الشاطىء أصغرهم وهو صالح بن سعيد فلاقاه الأهلون بحماسة شديدة ، والتفوا حوله وقتلوا ذلولا وجنده ، وأعلن الأمير صالح سيادة الخليفة الناصر على بلاده . وكتب إليه يشكره على حسن صنيعه مع أسرته و يطلب منة المعونة ، فأمده الخليفة بالأسلحة والخيام والرايات .

يقول دوزى : ألهت حوادث ناقور عبد الرحمن الناصر عن أن يقتص من مملكة ليون المسيحية لقتل قائده الباسل ابن أبى عبده ، ولكن المسيحيين جاءوا بما نبهه إلى وجوب القصاص منهم ، ففى ٩١٨ م ٣٠٥ هـ خرج أوردونو الثانى ابن الفونس (و يسميه العرب اردن ابن اذفونش) وحليفه سانكو (شانجه)

صاحب بنبلونه فاغارا على البلاد الاسلاميـة ، وأعملا السيف والنار فيها ، وهدما المساجد ، فأرسل عبد الرحمن الناصر حاجبه بدرا فى جيش عظيم ، ودارت رحى معركة طاحنة ٣٠٦ هـ ٩١٩ م هزم فيها المسيحيون . وتقهقروا معتصمين بالجبال، ولحق عبد الرحمن بالجيش فنكل بالمسيحيين ، ودمر حصونهم وأحرق القرى ، وأباد الجيوش وأخيراً غزا نافار ٣١٢هـ ٩٢٤م فلقيه سانكو ، وانتصر عبد الرحمن عليه ، ووصل إلى بنبلونه عاصمة النافاريين ووجد أهلها قد فروا منها رعبا ، فدمرها عبد الرحمن وخرب كنيستها التى كان يحج اليها النصارى كل عام ، وكذا خرب كنيسة أخرى على جبل قريب منها كان سانكو قد أنفق على بنائها نفقات طائلة .

وقد أضعفت هذه الغزوة سانكو ملك نافار فلم يعد الخليفة يخشى بأسه ، ولم يهتم بأمر مملكة ليون لأن الثورات الداخلية كانت تمزقها ، وأهلها يتناحرون ويقتل بعضهم بعضا ، فتركها عبد الرحمن ولو هاجمها لقضى عليها وأراح الأندلس من شرها ، وقد ندم عبد الرحمن على تهاونه هذا إذ دفع ثمنه غاليا فيما بعد

حلف أمير مسلم خائن وملك ليون :

حقد محمد بن هاشم أمير أرجونه على عبد الرحمن رغم تساهل الخليفـة معه وتركه فى أمارته حرا ، ودفعه الحسد إلى محالفة ملك ليون راميرو الثانى وأمير نافار جارسيا الذى كان تحت وصاية أمه تيودا أرملة سانكو ، فعاد عبد الرحمن إلى الاهتمام بشأن ليون لما رأى ملكها راميرو يزحف على مدريد (مجريط) ويستولى عليها ويسير لنجدة طليطلة الثائرة على الخليفة ، وقد رأينا كيف لم تفلح مساعى ملك ليون فى نجدة طليطلة وان المدينة سقطت فى يد عبد الرحمن ٩٣٢، وفى ٩٣٧م سار عبد الرحمن

على رأس جيشه لاخضاع الشمال وعقاب الخائن ابن هاشم ، وانتصر على المتحالفين وهدم ثلاثين حصنا من حصونهم ، وحاصر سرقسطة ودخل نافار ، فسلم إليه محمد بن هاشم ، ولعظم مكانته عفا عنه الخليفة وثبته فى منصبه ، وطلبت تيودا الوصية على ابنها جارسيا الصلح وتعهدت بدفع الجزية لعبد الرحمن ، ولم يعد خارجا عن طاعه الخليفة من الأندلس إلا ليون وجزء من قطلونيه ، فأراد عبد الرحمن إخضاع ليون ولكنه هزم شر هزيمة فى موقعة الخندق ٣٢٧هـ ٩٣٩م لخيانة العرب والبربر من قواده وذلك انهم استاءوا من توليته نجدة الصقلبى منصب القيادة ، فتسللوا من المعركة وتجنبوا القتال حتى قتل نجده ، وغطت اشلاء القتلى وجه الارض ، وهزم جيش عبد الرحمن على انه استطاع ان ينجو بنفسه مع نفر قليل من خاصته ، وساعده الحظ ان تفرقت كلمة المسيحيين فلم يطاردوه ولجأ فريق منهم اليه يحكمونه فى خلافاتهم الداخلية

الفاطميون وعبد الرحمن :

كان من اثر ما حل بالعلويين من الاضطهاد بعد قيام الدولة العباسية ان لجأ بعضهم إلى اطراف الدولة ينشرون دعوتهم لقيام دولة واكتساب اشياع لهم ، وكانت بلاد البربر اصلح الاقاليم لقبول هذه الدعوة لبعدها عن مركز الخلافة ولكراهية البربر للعباسيين الذين ابهظوا كاهلهم بالضرائب ، وكثرت ثورات البربر حتى اقنع ابراهيم بن الاغلب هرون الرشيد بالاعتراف له بالامارة على بلاد البربر على ان يدفع الجزية للعباسيين فقامت دولة الاغالبة بشمال افريقية وعاصمتها القيروان كما سنبين بعد

وفى عام ٩٠١ م ظهر بتلك البلاد أبو عبد الله الشيعي أحد دعاة المذهب الاسماعيلى ودعا ظاهرا لأولاد على وفاطمة ، واستطاع أن يمهد الأمر لزعيم الاسماعيلية سعيد بن عبد الله القداح الذى ادعى أنه المهدى المنتظر ، وسمي نفسه عبيدالله . واستطاع عبيدالله أن يجمع البربر حوله ، وأن يسقط الدولة الأغلبية فى مدينة القيروان ، ويؤسس بدلها مدينة المهدية فى تونس أيضا ، وأن يبسط نفوذه على شمال أفريقية ، وكان هنالك تراسل بين الأغالبة وابن حفصون كما مر بنا ، واتفق أن علم عبيد الله المهدى بتلك الرسائل وسمع من ابن حوقل الرحالة الشيعي بما كان فى بلاد الأندلس من فتن مندلعة فطمع فى الاستيلاء عليها ونجح إلى حد ما فى ارسال رسله لنشر دعوته فيها

واستطاع رسوله مسره أن يجد له سامعا فيها ، ولكن أحد الأمراء الأمويين واسمه احمد بن معاوية لم يسمح لمحتال أجنبي أن يبزه فى الاحتيال ، فسبق مسره وأعلن نفسه المهدى المنتظر ، وكان البربر فى الأندلس كأخوانهم فى أفريقية سريعي التصديق فانضموا اليه للجهاد تحت رايته مصدقين مزاعمه ، فقادهم للهجوم على المسيحيين الذين ظالما أذاقوا البربر صنوف الهوان ، وكان احمد يدعى أن الحصون ستسقط إجلالا له بمجرد ظهوره أمامها ، ويوهمهم بأنه يقوم بخوارق الكرامات ، وحالفه الحظ أول الأمر فانتصر على الفونس الثالث ملك ليون بالقرب من حصن سموره ، ولكن قواد البربر تملكتهم الغيرة فعزموا على أن يقلبوا له ظهر المجن ، فهاجموا المسيحيين ثم هرب فريق منهم ، ولكن ثبت معظم الجيش ولم ينل ملك ليون نصرا ، إلا أن البربر بدأوا يشكون فى صحة دعوى المهدى ، وانفضوا من حوله وتركوه يقاتل مع فريق قليل من مؤيديه حتى قتل وعلق الفونس الثالث رأسه على باب حصن سموره . وهكذا قدر لمشروع مهدى أفريقية أن لا يتحقق

إذ سبقه فيه سابق من أمراء البلاد أنفسهم

وفى عام ٩١٧ م ٣٠٥ هـ استرد صالح بن سعيد امارة ناقور ، ودخل فى حماية الناصر ، وفى ٩٢٩م استطاع محمد بن خاذر زعيم البربر أن يخلص أفريقية الوسطى من يد الفاطميين بعد أن قتل بيده قائدهم مصاله ، وأدخل هذا الاقليم أيضا تحت حماية الناصر ، وفى ٩٣١م احتلت جنود الناصر مدينة سبته وحصنوها برا وبحرا ، وكان الناصر قد ابتنى أسطولا نازع الفاطميين السيادة على غرب البحر الأبيض المتوسط

وفى سنة ٩٤٥م استطاع المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين استرجاع نفوذ الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب فطرد عامل عبد الرحمن على سبته وقتل أبا يزيد زعيم البربر ٩٤٧ م

يقول دوزى : بأن الناصر أمر بلعن الفاطميين على جميع منابر الأندلس بسبب هـذا الاعتداء ، وإنه كلف قائده غالبا أن يهاجم بأسطوله سواحل افريقية ولـكنه لم يكن موفقا فى حملته هذه ، ورجعت الحملة بعد أن فازت ببعض الفوز .

وأما ابن خلدون فقد قال فى هذه الغزوة ما يأتى :

« بعث المعز إلى الحسن بن على عامل صقلية عام ٣٤٤هـ أن يخرج بأسطوله إلى ساحل المرية من بلاد الأندلس ، فعاث فيه وغنم وسبى ورجع ، فأخرج الناصر صاحب الأندلس اسطوله إلى سواحل افريقية مع غالب مولاه ، فمنعتهم العساكر وأقلعوا ، ثم عادوا سنة ٣٤٥ هـ فى سبعين مركبا فأحرقوا مرسى الخرز ، وعاثوا فى جهات سوسه ، ثم فى نواحى طبرقه ورجعوا »

و يؤخذ من كندى ورومى ، نقلا عن كتاب محمد بك دياب ، أن هجوم عامل صقلية على ساحل المرية أثار سخط خليفة قرطبة وكان حاجبه وقتئذ احمد بن سعيد (أحمد بن عبد الملك بن شهيد فى عرف المقرى) الذى امتاز بفوزه فى غزوة جليقية الأخيرة فحقق للخليفة امكان انتقامه من المعتدين ، وجمع السفن من شواطىء اسبانيا ، وقادها إلى وهران مقلة عدداً عظيما من رجال الحرب الأشداء ، وجمع من فرسان الأندلس المحتلين بلاد المغرب خمسة وعشرين ألف فارس ، ثم هجم بالرجلان والفرسان على افريقية ، فقابله الحسن بن على بجيوشه ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين حتى غلب ، وهزم الاندلسيون قبائل صنهاجة وكتامة واتبعوا آثارهم حتى وصلوا إلى ضواحى تونس ، وكانت غنية بتجارتها الواسعة فحاصروها برا و بحرا وشددوا الحصار عليها فعرض أهلوها أن يسلموا المدينة ، وقدموا مقدارا جسيما من المال إلى ابن سعيد ، فطلب منهم مقدارا أجسم مما قدموا فاضطروا إلى أدائه ، وأخذ منهم أيضا أنسجة مختلفة الأجناس ، وطرفا من الحلى وذهبا وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير للرجال والنساء وأسلحة وفيلا وعددا من الأرقاء ، ثم رجع بأسطوله إلى اشبيلية مشحونا بهذه الغنائم الواسعة ففرح به الخليفة ورقاه إلى أسمى مراتب الشرف ، ورتب له فى كل سنة مائة ألف قطعة من الذهب

أزعج استيلاء الحاجب احمد بن سعيد على مدينة تونس المجاورة لمدينة القيروان خليفة المهدية المعز لدين الله الفاطمى ، فهب لأخذ الثأر وشهر الحرب على بلاد المغرب التى كانت تحت حماية الناصر ، وأرسل جيشا كبيرا على رأسه قائده جوهر سنة ٣٤٧ هـ واستعد أهل المغرب لملاقاته ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين بجوار تاهرت وانتصر جوهر وقبض على يعلى قائد المغاربة وقتله ، و بعث برأسه إلى المعز ، ثم زحف

جوهر على سجلماسة وفتحها ونهب أموالها وأسر صاحبها محمد بن الفتح ، ثم اتجه نحو فاس وحاصرها ودخلها فى أواخر رمضان سنة ٣٤٩ (نوفمبر سنة ٩٦٠م) ، وضرب أعناق أهليها وأسر واليها من قبل الأمويين وهو أحمد بن أبى بكر الزناتى ونهب المدينة ، وخرب كثيرا من منازلها ، ثم أخذ يطارد جنود بنى أمية فى جميع بلاد المغرب حتى استولى عليها ، وأسرع الحسن بن قانون الادريسى واعترف بسيادة المعز ودخل فى طاعته ، ثم عاد جوهر بعد انتصاره إلى أفريقية ومعه من الأسرى عدد كبير من رؤساء العشائر وشيوخ القبائل فاستقبله المعز فى يوم مشهود

شغلت حوادث أفريقية بال عبد الرحمن الناصر، وضاعفت أحزانه ،وتأهب للثأر ، ووجه إلى المغرب أسطولا قويا يقل كثيرا من الجنود البواسل ونزلوا ببلاد المغرب وامتلكوا فاس بعد معارك عنيفة ، واستولوا على مدن أخرى ، وأخضعوا كل البلاد من فاس إلى البحر المحيط ، وعاد خطباء المنابر فى جميع المساجد يخطبون باسم الامام عبد الرحمن الثالث ، وعاد الأمير الحسن بن قانون إلى ولائه للناصر

تجدد الحرب مع ليون :

استمرت المناوشات بين الناصر ونصارى الشمال بعد معركة الخندق مدة طويلة وأخيرا رغب أوردنو فى مصالحة الخليفة ، وأرسل رسولا إلى قرطبة يطلب الصلح فى سنة ٩٥٥ م ، فأصغى اليه عبد الرحمن . وأرسل فى السنة التالية الى ليون محمدا بن حسين وهداى المدير العام للجمارك للمفاوضة فى شروط الصلح ، ولم تطل المفاوضات بسبب تساهل اوردنو اذ قبل تسليم بعض الحصون إلى المسلمين وهدم البعض الآخر ، ورجع الرسول الى قرطبة يحمل شروط المعاهدة فقبلها عبد الرحمن، وكذلك عقد الصلح بين عبد الرحمن والملكة طوطة أميرة نفار الوصية على ابنها غارسيا

ولكن لم يدم الصفاء بين المسلمين ونصارى الشمال طويلا وذلك بسبب موت أوردنو الثالث فى آخر سنة ٣٤٥هـ (مارس سنة ٩٥٧ م)

جلس على عرش مملكة ليون الأمير سانكو (شانجة) بعد موت أخيه ورفض شروط الصلح المعقودة مع عبد الرحمن ، ولم ينفذ ما تعهد به الملك المتوفى فغضب الخليفة وأمر قائده القدير احمد بن يعلى والى طليطلة أن يزحف على أملاك ليون ، فقام على رأس جيش وغزا بلاد النصارى وانتصر على سانكو انتصارا باهرا

ثار الأمراء فى ليون فى وجه مليكهم الجديد لسوء تصرفه وكبريائه واستبداده بالحكم . وكرهه الناس لفرط سمنته إذ كان لا يستطيع ركوب الخيل ، وكان لا يمشى إلا متكئا على آخر ، وانتهز فردنيان أمير قشتالة فرصة سخط أهل ليون وتزعم الثورة وانضم اليه الجيش وأعلن خلع سانكو فى فصل الربيع عام ٩٥٨ م ، واختارت البلاد ملكا جديدا يسمى اوردنو بن الفونسو الرابع ، فالتجأ الملك المخلوع إلى نفاره وشكا ما أصابه الى جدته الملكة طوطه التى كانت تحكم البلاد باسم ابنها غارسيا ، وهذه لجأت بدورها الى الناصر لتستعين به على أعادة سانكو إلى العرش ، وأرسلت تطلب منه طبيبا من أطباء قرطبة ليعالج حفيدها من سمنه الفظيع ، والعمل إلى إعادته إلى عرش بلاده فقبل عبد الرحمن الطلب وأمر الطبيب هداى اليهودى وكان من أمهر الاطباء فى قرطبة ومن كبار رجال سياستها أن يذهب إلى نفارا لمعرفته للغتها ، ويفاوض طوطه وابنها وحفيدها فى شروط صلح يعقد بين المسلمين والنفاريين وسانكو بعد معالجته وعودته إلى عرش البلاد ، ونجح الطبيب فى المفاوضات وطلب إلى الملوك الثلاثة أن يزوروا قرطبة فلبوا الدعوة ورحلوا إلى قرطبة واستقبلهم الناصر استقبالا باهرا وأنزلهم فى الزهراء

و بعد زمن هاجم جيش النفاريين قشتالة ، وهاجم جيش من المسلمين ليون يصحبه سانكو الذى كان قد عوفى من مرضه وصار نشيطا ، وانتصر الجيش على المدافعين من أهل ليون واستولى على مدينة سموره ، وفى شهر ابريل سنة ٩٥٩ م خضع جزء كبير من البلاد الى سانكو ، وسقطت العاصمة فى يده بعد مقاومة عنيفة ودخل سانكو ظافرا بعد فرار أوردنو الرابع منها ، وأرسل سانكو إلى الناصر يشكره على حسن صنيعه معه ، وقام بتسليم عشرة حصون إلى المسلمين ، منفذا بذلك ماوعد به رسول الناصر

لقب أمير المؤمنين :

كان أسلاف عبد الرحمن من الحكام الأمويين فى أسبانيا يلقبون بالأمراء فقط ، مثلهم فى ذلك مثل الولاة الذين تولوها قبلهم منذ الفتح العربى ، ولم ينتزعوا إلى انتحال ألقاب الخلفاء فى الشرق مع أنهم كانوا ملوكا مستقلين وأعداء للعباسيين ، وكانوا يستعملون النقود الشرقية ، فلما تولى عبد الرحمن الثالث أمر البلاد تلقب بالخليفة الناصر أمير المؤمنين ، وضرب نقوداً جديدة باسمه و كتب عليها ألقابه

يقول ابن خلدون : « إنه أول من تسمى بأمير المؤمنين عند ما تلاشى أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، و بلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنه سبع وعشرين وثلثمائة فتلقب بألقاب الخلفاء » .

وقال ابن عذارى : « إن عبد الرحمن هو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين وتلقب بأحد الألقاب السلطانية وهو الناصر ، ثم تسمى منهم من كان بعده من خلفائهم بأمرة المؤمنين ، وذلك حين ضعفت الخلافة العباسية وظهرت الدولة

منظر خارجي لجامع قرطبة

التركية والديلمية ، فصارت إمرة المؤمنين لائقة بمنصبه وكلمة باقية فى عقبه ، فاستهل الخطيب فى جامع قرطبة احمد بن بقى بن مخلد بذكر هذا الاسم المخلد يوم الجمعة الأول من سنة ٣١٦ هـ ».

يقول أبو الفداء : « هو أول من تلقب من الأمويين أصحاب الأندلس بألقاب الخلفاء وتسمى بأمير المؤمنين ، وكان من قبله يخاطبون ويخاطب لهم بالأمير وأبناء الخلائف ، وبقى عبد الرحمن كذلك إلى أن مضى من أمارته سبع وعشرون سنة ، فلما بلغه ضعف الخلفاء بالعراق ، وظهور الخلفاء العلويين بإفريقية ومخاطبتهم بأمير المومنين أمر أن يلقب بلقب الناصر لدين الله و يخاطب له بأمير المؤمنين » .

يوخذ من هذه الروايات أن المؤرخين اختلفوا فيما بينهم فى السنة التى تلقب فيها عبد الرحمن بلقب أمير المؤمنين ، ولكن دوزى بعد ان محص الروايات المختلفة ذكر أن عبد الرحمن تلقب بهذا اللقب فى يوم الجمعة سادس عشر يناير سنة ٩٢٩ وهو الموافق أول ذى الحجة سنة ٣١٦ والظاهر أن هذا التاريخ هو أرجح التواريخ

نهضة العمارة وبناء الزهراء :

نهج الناصر منهج أسلافه من أمراء الأمويين فى العناية بتشييد الأبنية الفخمة ، والتفنن فى إتقانها ، فانه لما استفحل ملكه وخيم السلام على ربوع دولته حول جهوده إلى إقامة المعاهد والآثار الدالة على قوة الملك وعظمة السلطان ، فشيد إلى جانب القصر الزاهر قصراً عظيما سماه دار الروضة ، وجلب إليه الماء من الجبل ، واستدعى نوابغ المهندسين والبنائين من كل فج ، واجتمع إليه أمهر صناع

القسطنطينية وبغداد ، ثم أخذ فى بناء المتنزهات ، وساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر تشهد لمبتدعها بحسن المعرفة وسلامة الذوق ، وفى اول محرم سنة ٣٢٥ (نوفمبر سنة ٩٣٦) اختط مدينة الزهراء فى شمال قرطبة على نحو خمسة اميال منها ، ويقال إن سبب بنائها ان جاريته الزهراء وكان يحبها حباً جماً طلبت إليه أن يبتنى لها ضاحية جميلة ويسميها باسمها فلبى عبد الرحمن الطلب وشيد تلك المدينة الفريدة ، وقد أتقن بناءها ، واحكم الصنعة فيها ، وجعلها مسكناً للزهراء وحاشيته ورجال حكومته ، واستمر العمل فيها نحو اربعين سنة إذ لم يتم تشييدها إلا فى عهد ابنه الحكم

وقال ابن خلدون : « اختط الناصر مدينة الزهراء ، واتخذها منزله وكرسيا لملكه ، وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما علا على مبانى أسلافه ، واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها دورا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب ، وغير ذلك من المهن »

روى المؤرخون انه كان يعمل فى عمارة الزهراء عشرة آلاف رجل وألف وار بعمائة بغل ، وكانت مبانى الزهراء تشتمل على أربعة آلاف وثلثمائة سارية ، وعلى ما ينيف على خمسة عشر الف باب مليسة بالحديد والنحاس المموه ، وكان بها بحيرة ذات حيتان ، وحمامان احدهما للعامة والآخر للخاصة ، وجامع وقصر للخلافة ، فالجامع كان ذا خمسة أبهاء ومحراب ومنبر بديع ومقصورة عجيبة ومأذنة وصحن مكشوف ، وجميعه مفروش بالرخام الحمرى ، وفى وسطه فوارة يجرى منها الماء ، وقد اشتغل فى بنائه آلاف من الصناع حتى أتموه فى ثمانية وأربعين يوما وذلك فى شعبان سنة ٣٢٩ هـ ، وأما قصر الخلافة فكان فخما عليه حلة من

الجمال مشرفا على الرياض فيه مجلس مقرمدة قبته وحيطانه بقرامد الذهب والفضة يعرف بمجلس الذهب ، وضع فى وسطه اللؤلؤة اليتيمة التى أهداها إليه ليون ملك القسطنطينية ، وفيه حوض عجيب منقوش بتماثيل الانسان

وجعل عليه تماثيل من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس مما عمل بدار الصناعة بقرطبة ، ترى فى هـذه التماثيل صور الأسد والغزال والتمساح والثعبان والعقاب والفيل والحمامة وغير ذلك من الحيوان ، تمج الماء من أفواهها إلى الحوض وكان فى كل جانب ، كما ورد فى المقرى ، ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العـاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ الأبصار ، وأنه كان وسط هذا المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل للحاضرين أن المحل قد طار بهم

هذا ولم يقتصر الناصر على اتقان تجميل الزهراء بل جمل قرطبة بالقصور والمساجد ، وأنشأ بها نافورات ماء من المرمر الجميل ، وأنشأ كذلك فى مساجد أشبيلية وفى غيرها من أمهات المدن بالأندلس تلك النافورات وأحاطها بالبساتين وغرس فيها الزينة والفاكهة وأصلح قنطرة الوادى الكبير

والخلاصة أن الناصر أنفق على عمارة البلاد مالا جسيما بالغ المؤرخون فى تقديره مما يدل على اتساع موارد الدولة فى عهده ، وعلى عظيم ما وصلت اليه من المجد والجاه .

ولاية العهد :

عنى الناصر بتربية ابنه الحكم وتهذيبه ، واختار لتعليمه كبار الأساتذة واستدعى اليه من بغداد اسماعيل بن القاسم المعروف بأبى على القالى وعهد اليه بمصاحبة الحكم فى قصر الزهراء فشب مولعا بالعلوم والآداب ، ولأنه كان أكبر اخوته كان أهلا لولاية عهد أبيه واختاره الناصر ولياً للعهد ، وقد حسده أخوه عبدالله على هذه الولاية ، ونافسه فى ذلك وتآمر مع آخرين على حرمان الحكم من ولاية العهد ولكن الناصر اكتشف مؤامرتهم وأمر بقتلهم أجمعين .

وفاة الناصر وكلمة ختامية :

توفى الناصر لدين الله فى شهر رمضان سنة خمسين وثلثمائة هجرية (أكتوبر سنة ٩٦١ م) وهو فى السبعين من عمره ويعتبر المؤرخون عهده أرفع ذروة بلغتها عظمة الدولة الأموية بالأندلس ، وحدا فاصلا بين دور تقدمها ورفعتها ودور اضمحلالها وسقوطها ، كيف لا وقد تولى العرش وكانت الفتن والفوضى والثورات تهدد ملك بنى أمية بالزوال ، فتسلم زمام الأمر ، ونهض بحزم وعزم وقضى على كل هذه الفتن ، ودفع غارات الأسبان من مسيحيين ومسلمين ، وصد اطماع نصارى الشمال ، وصان بلاده من غارات الفاطميين ، وأصلح المختل من شئونها ، وملأ خزائنها بالأموال ، وبلغ ما اقتصده عشرين مليونا من الدنانير من دخل سنوى مقداره نحو ستة ملايين ونصف دينار ، وشجع الزراعة والصناعة والتجارة ، وبلغت الأندلس فى عهده من القوة والمنعة ما جعل دول أوربا تخطب ودها ، فأرسل امبراطور القسطنطينية وأمراء الألمان وملوك إيطاليا وفرنسا سفراءهم إلى

قرطبة ، وأصبحت آداب بلاط عبد الرحمن قانونا ساريا يحاكى فى قصور الملوك ، ويعد كثير من المؤرخين عبد الرحمن الناصر ملكا عصريا على الرغم من أنه عاش فى العصور الوسطى ، اذ بدهائه جمع الشعب حوله ووحده ، ونمى موارده ودعم الحالة الاقتصادية ، ووطد التوازن الدولى بمحالفاته ، ووسع بلاطه واستخدم رجالا من جميع الأديان مما دل على عظيم تسامحه ، فكان خير نموذج لملوك العصر الحديث

ومما يؤخذ عليه أنه حكم حكما مطلقا لا يقيم وزنا لشخصية أخرى غير شخصته فنفر بذلك أمراء العرب والبربر ، ورقى صغار الموظفين من ذوى الحسب الوضيع حكاما ليكونوا طوع بنانه ، وعزل وزراءه وحاجبه ، واتخذ له جيشا من الصقالبة بلغ عدده ١٤ ألفا ، وجعل لهم الحظوى لديه مما زاد فى سخط امراء العرب والبربر وقد ظهر ذلك جليا فى موقعة الخندق التى مر ذكرها ، وارتقى عدد كبير من الصقالبة وشغلوا الوظائف العليا ، وتثقفوا بالثقافة الاسلامية ، ونبغ الكثيرون منهم فى العلوم العربية وآدابها ، واخلصوا الاخلاص كله لسيدهم ، فكانوا اشبه بجند المماليك الذين استكثر منهم الصالح ايوب فى مصر وسوريا

وقد جاء والبلاد تمزقها الفوضى ، معرضة لغارات نصارى الشمال والفاطميين من الجنوب ، وعلى الرغم من العقبات التى اعترضته خلص الاندلس من التهلكة وأكسبها النظام والرقى ، والسعادة فى الداخل ، والاعتبار والاحترام فى الخارج ، وكان الغريب عن البلاد يروقه جمال مزارع الاندلس ، وهندسة ريها العجيبة ، وكمال نظام القضاء ، وانخفاض اثمان الاطعمة والاقوات ، ورخاء الشعب ورفاهيته ونظافة الملابس ، وكانت قرطبة فى عصره تضارع بغداد فى العظمة والحضارة

و بلغ عدد سكانها نصف مليون . وعدد مساجدها ثلاثة آلاف وعدد حماماتها ثلثمائة ، وعدد ضواحيها ثمانية وعشرون

و يقول لينيول «... وكانت النظافة لدى المسلمين معدودة من الايمان بينما كان مسيحو العصور الوسطى يحرمون الاغتسال لأنه فى زعمهم عادة وثنية . وكان الرهبان والراهبات يتباهون بالقذارة ، حتى أن احدى القديسات افتخرت أنها لم تغسل جسدها إلى أن بلغت الستين من العمر ، فكانت القذارة من تعاليم الصلاح والتقوى لدى المسيحيين ، أما المسلمون فعلى العكس من ذلك كانوا يراعون أدق شروط النظافة ، وكان دينهم يحتم عليهم أن لا يقربوا الصلاة إلا إذا توضأوا وتطهروا » .

يقول جوزيف مكاب : « أثرت البلاد فى عهد عبد الرحمن الثالث ثراءا مدهشا ، وزاد دخل الخزينة حتى بلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات من العشور وحدها ، وألغى كل الضرائب التى كان ولاة الاقاليم والعصاة يرهقون بها الأهلين ، و يقال إن ايراد الدولة تضاعف عشرين ضعفا عما كان عليه فى زمن عبد الرحمن الداخل ، وذلك فى الوقت الذى كانت القوة الشرائية للنقود تساوى خمسة امثال ما تساويه الآن على الأقل » .

و يقول فى موضع ثان : « كان الطعام فى عصره كثيرا ورخيصا ومتنوعا ، وعاش ثلاثون مليونا من الأنفس فى رغد من العيش فى الأندلس منذ ألف سنة ، وذلك بفضل الادارة الحسنة التى تمتعت بها اسبانيا العربية فى عهد عبد الرحمن الناصر ، مع أن هذه البلاد لم تستطع تموين ستة ملايين من الانفس وهو العدد الذى وصل اليه سكانها فى عهد حكامها من نصارى الاسبان بعد انتزاعها من الحكم الاسلامى عقب وفاة هذا الحاكم القدير ببضعة قرون »

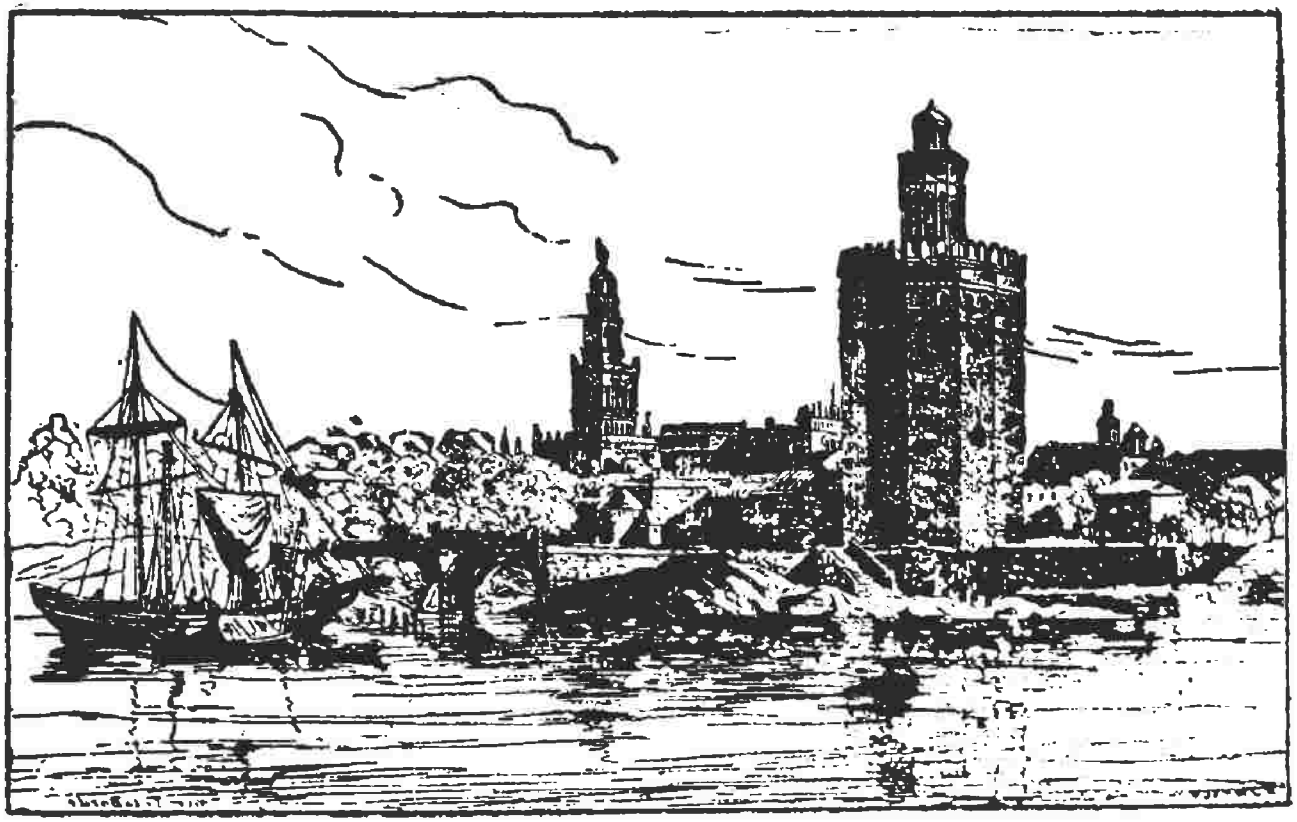

البرج الذهبي باشبيلة

و يقول فى موضع ثالث : « اختفى فى عهد عبد الرحمن الناصر حكم الاقطاع من البلاد ، وأصبح الجيش فى أحسن حالات العز يتناول أفراده مرتباتهم من الخزينة العامة ، وعلى شواطى الوادى الكبير ازدهرت القرى وبلغ عددها ١٢٠٠ وتوفرت وسائل النظافة بين سكانها . ورتع أهلها فى بحبوحة اليسر والهناءة وقت ان كان تسعة أعشار سكان فى أوربا ارقاء اذلاء ، يرزحون تحت اعباء البؤس والفاقة » .

قال دوزى : « نجد إذا مادرسنا ذلك العهد الزاهر أن الصانع يثير الاعجاب والدهشة اكثر مما يثيرها المصنوع ، كما يثير الاعجاب ايضا ذلك النبوغ الشامل الذى أحاط بكل شىء علما ، وتعرف إلى دقائق الامور فما ترك صغيرة ولا كبيرة الا احصاها »

الفصل الثانى

النهضة العلمية فى الاندلس

الحكم الثانى المستنصر بالله (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ — ٩٦١ — ٩٧٦ م)

تولى الحكم الثانى بن عبد الرحمن الناصر بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م ولم يكن ضعيف الرأى راغبا عن الاضطلاع بعبء المسئولية ، ولكنه كان منصرفا إلى الأدب مولعا بتشييد المبانى والتفنن فى تجميلها

علاقة الاندلس بنصارى الشمال فى عهده :

لم تكن لوفاة عبد الرحمن الناصر رنة أسف فى بلاط ليون أو نفارا ، على الرغم مما كان له من أياد على البلاطين . بل رأى حكام تينك المقاطعتين فى وفاته فرصه سانحة للتخلص من الالتزامات التى فرضها عليهم ، والتحرر من الوصاية الاسلامية ، وجرأهم على ذلك أن ظنوا فى الحكم ابنه الظنون ، وتوهموا أنه فاقد لمواهب أبيه الحربية جانح إلى السلم ، فرفضوا تسليم الحصون التى تعهدوا بتسليمها وانضم إلى أميرى ليون ونفارا وأمير قشتالة فرنان جونزاليز الذى بادأ الحكم بالعدوان ، فاغار على حدود الدولة الاسلامية يريد بذلك توسيع أملاكه ، فأمر الحكم قواده وعماله بتعبئة الجيوش ، ولما تمت التعبئة قاد الجيوش بنفسه باقدام وجرأة ، وضرب فرنان ضربة ساحقة مزقت جيشه واضطرته إلى الفرار ، وخرب الحكم كثيرا من قلاع قشتالة الواقعة على نهر دورو ، ثم عاد إلى قرطبة بعد هذا النصر حيث تسمى بالمستنصر بالله ، وهناك وفد عليه الأمير أوردنو الشقى الذى كان قد طرده

سانكومن ليون بفضل مؤازرة عبد الرحمن الناصر ، يعرض عليه الخضوع والولاء و يستمد معونته فيما اعتزمه من محاولة استرداد عرشه ، وقابله الحكم الثانى فى قصر الزهراء بأبهة وعظمة فائقة ، وخلع عليه وعلى حاشيته ووعده خيرا

ولم يلبث الحكم أن جهز جيشا بقيادة مولاه غالب لاعادة أوردنو إلى عرش ليون ، ولكن سانكو أمير ليون أسرع بارسال وفد من نبلاء بلاده وكبار أساقفتها إلى الخليفة ، يؤكد له العزم على الوفاء بكل مافرضته عليه معاهدة الصلح المعقودة بينه و بين عبد الرحمن الناصر ، فاعرض الحكم عن تأييد أوردنو. على أن وفاة أوردنو بعد ذلك بقليل شجعت سانكوعلى النكث بعهده ، فتجددت الحرب بين الحكم و بين ليون وقشتالة ونفارا وقطلونية ٩٦٢ م ، فأخذهم الخليفة فرادى وانتصر عليهم جميعا ، ومن عجيب أمر هؤلاء المسيحيين أنهم كانوا لايلبثون أن يجددوا عدوانهم بعد الصلح وعقب الهزيمة ، وينقضوا المعاهدات قبل أن يجف مدادها ، والظاهر أنهم كانوا يعدون حروبهم جهادا مشروعا للدفاع عن وطنهم ودينهم ، فلم تفتر لهم عزيمة ولم تفل من غاربهم هزيمة .

بدأ الحكم بمهاجمة فرنان جونزالز أمير قشتاله ، فاستولى على حصون بلاده واضطره إلى الصلح . وانتصر قواد الحكم على بقية الأعداء . فهزم غالب جيوش ليون . وأخضع جليقية ، وهزم سانكو ، كما هزم يحيى بن محمد التجيبى حاكم سرقسطة جارسيا أمير نفارا . وانضم غالب إلى يحيى فأتما اخضاع نفارا واضطر سانكو أمير ليون الى الخضوع وعقد الصلح ٩٦٦ م . وتبعه جارسيا أمير نافارا وأمير باسك ، وغيرهم من الأمراء . وقبل الجميع أن يهدموا حصونهم القريبة من حدود بلاد المسلمين ، وأن لايساعدوا الثوار ولا يتحالفوا معهم ، ولايعودوا إلى

بمحاربة الخليفة . وأظهرت الحوادث أن هذا الصلح ظل مرعيا وطيدا ، فساد السلام ربوع الأندلس الاسلامية

أما الامراء المسيحيون فقد انشقوا على أنفسهم بعد ذلك ، وتفرقوا شيعا ، وعمت الفوضى بلادهم حتى استحال عليهم أن يحلموا بمهاجمة بلاد الخليفة

علاقة الأندلس بالمغرب الاقصى فى عهده :

لم يعد الفاطميون مصدر خطر على الأندلس ، كما كانوا مدة عبد الرحمن الناصر ، فان هؤلاء قد اشتغلوا بأمر مصر عن الأندلس ، ووجدوا فيها مغنما سهلا يسد أطماعهم. فاستولوا عليها ، واسسوا القاهرة المعزية سنة ٩٦٩ م . ثم انتقل المعز اليها عام ٩٧٢ م ، تاركا أبا الفتوح يوسف بن زيرى نائبا عنه فى أفريقية والمغرب. وكان من الممكن أن يترك الحكم الأمراء المنتمين اليه فى أفريقية وشأنهم ولكنه رأى فى ذلك ضياعا لهيبته . وكان الادارسة قد دخلوا فى طاعة الفاطميين ، وأخذوا يناوئون الأمراء الموالين للاندلس . فاضطر الحكم إلى ارسال جيش إلى بلاد المغرب ٩٧٢ م ، بقيادة مولاه غالب لتأديب أمير صنهاجه ، الذى ثار فى وجه الحاكم الأموى ولجأ إلى الفاطميين ، ولتأديب خليفة الحسن بن قنون أمير الأدارسه ، وانتصر غالب بفضل ما فرقه من الأموال بين قبائل زناتة ومكناسة ، ولكن الخليفة شك فى أمانة غالب ، ورأى أن يرسل اليه محاسبا أمينا . فاختار ابن أبى عامر . وعينه قاضيا لقضاة المغرب ، ومراقبا لادارته السياسية والحربية ، وأوصاه برقابة القواد ، وأمر أن لا يبت القواد ولا الحكام برأى فى المسائل الهامة إلا بعد استشارة ابن أبى عامر . وبفضل مرونته وكياسته استطاع أن يؤدى مهمته على أتم وجه . ونجح غالب فى اخضاع الأدارسة ، ثم واقاه مدد بقيادة يحيى بن محمد

التجيبى ، فقضى على الفتن ، وعاد إلى قرطبة ومعه الأمراء الادارسة أسرى عام ٩٧٤ م فأدخلهم الخليفة فى خدمته

النهضة العلمية فى عصر الحكم الثانى :

وعندما أخضع الحكم اعداءه المسيحيين ، وخلت الدولة الاسلامية فترة من المشاغل ، انصرف الحكم إلى الادب وعكف على التبحر فى العلوم ، ولم تر الأندلس من قبله ولا من بعده ، أميرا فى مثل ثقافته وعلمه وحكمته ، وأصبح شغله الشاغل اقتناء الكتب النادرة ، فى الفلسفة والأدب والفقه مهما كلفه ذلك . فاذا سمع بكتاب نادر أسرع إلى شرائه . . . وكان له وسطاء يجوبون بلاد الشرق ومصر والعراق وبلاد المغرب ، لجمع الكتب ونسخها . فجمع ٤٠٠ الف كتاب ، مع أن الطباعة لم تكن معروفة فى ذلك الوقت ، ولم يكن الورق رخيصا . وكان الانسان أنى سار فى قرطبة وحواضر الأندلس ، لا تقع عينه إلا على النساخ والمجلدين والمذهبين . واستفادت الأندلس من هذه الكتب ومن النهضة العلمية التى انبعثت فيها . فأصبحت مقصد العلماء من بلاد المشرق للبحث والاطلاع ، وأصبح مسجد قرطبه جامعة من أهم جامعات ذلك العصر ، لا يدانيها فى منزلتها إلا الأزهر فى القاهرة والجامعة النظامية فى بغداد . وكان الحكم يمنح المكافآت العظيمة للمؤلفين . ومن ذلك أنه أرسل ألف دينار لأبى الفرج الاصفهانى ، اعانة له وتشجيعا على تأليف كتاب الأغانى ، وارسال نسخة منه إلى الأندلس وقرأ الحكم أغلب الكتب التى توافرت لديه فى مكتبة قصره ، وكان يعلق عليها بخطه . وأضاءت بلاد الأندلس أنوار العرفان ، وقت أن كانت الأمية متفشية فى الدول المعاصرة لها فى أوربا ، ومعرفة القراءة والكتابة قاصرة

على القسس ورجال الدين . وأسس الحكم بقرطبة ٢٧ مدرسة كبرى للفقراء ، حيث يطعمون ويكسون . وكان الحكم يدفع رواتب المعلمين ونفقات التلاميذ من جيبه الخاص . وكان يحاضر فى جامعة قرطبة أبو بكر بن معاوية فى الحديث ، وأبو على القالى فى أخبار العرب وآدابهم وجمعت محاضراته فى كتاب (الامالى) المشهور . وكان ابن القوطية أستاذا للنحو والصرف وكان الطلبة يعدون بالألوف — وكان أكثرهم يحضرون علم الفقه ، لأنه سبيل الرقى الى الرتب العالية . كما كان منهم من يحضر دروس الفلك والطب والفلسفة والتاريخ الطبيعى

أما عن الادب فقد ازدهر ونفقت سوقه ، فأصبح الشعر يقرضه الخاصة والعامة ويرتجله الشعراء

ظهور محمد بن أبى عامر :

وفى هذه الجامعة تعلم طالب نابه نخصه بالذكر ، هو محمد بن أبى عامر من نسل عبد الملك بن عامر المعافرى ، الذى وفد على الاندلس مع طارق بن زياد ويرجع نسبه الى بنى عامر ، قبيلة يمانية . وكان أبوه عبد الله من أشهر علماء عصره وجده محمد كان قاضى أشبيلية ، أما هو فكان قوى لبقا ، شديد الذكاء ، قوى الخيال ، كبير المطامح ، واسع الامال ، حاد المزاج ، قوى البنية . ولما أتم دراسته دفعته الحاجة إلى التماس الرزق من كتابة العرائض ، التى كان يرفعها أصحاب الظلامات للخليفة . ثم اشتغل كاتبا بمحكمة قرطبة . ولما كان قاضى قرطبة غير مرتاح للعمل معه لعدم اتفاق طباعهما ، سعى فى نقله إلى وظيفة فى قصر الخليفة. وساعده فى ذلك صديقه الوزير المصحفى ، فتوسط فى تعيينه وزيرا لاملاك ابن الخليفة الاكبر الامير عبد الرحمن ، براتب قدره خمسة عشر دينارا . ووافقت

الملكة صباح على هذا الاختيار ٩٦٧م وكانت اسبانية من بلاد الباسك فى شمال أسبانيا (ويسميها العرب الشكنس) وهكذا بسم الحظ لمحمد ، وأعجبت الملكة بآدابه ، وحسن مظهره ، فعينته مديرا لأملاكها الخاصة أيضا . ثم انتقل بعد ذلك إلى منصب مديردار الضرب . ونجح محمد فى اكتساب رضاء الملكة وبفضل حسن هداياه نال الحظوة لدى الخليفة ، فاصبح قاضيا لاشبيلية وأمينا لهشام ولى عهد الحكم الثانى . وفى ٩٧٤ م أصبح قائدا للفرقة الثانية من حرس الخليفة ، وبنى لنفسه قصرا بديعا بالرصافة ، كان مقصد طلاب الحاجات . ولم يأل جهدا فى اكتساب محبة الناس ورضاهم . ونجح سعيه ، فأصبح مديحه ملء الاسماع ، واكتسب صداقة القواد ، وأصبح مركزه وطيدا فى دولة الخلافة

ولى العهد :

أمر الحكم الثانى المستنصر قبيل وفاته بالبيعة لابنه وولى عهده هشام الثانى عام ٩٧٦ م وكانت أمه الملكة صباح ذات نفوذ عظيم وحظوة كبرى

وفاة الحكم الثانى :

ثم توفى الحكم بقصره بقرطبة فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، ٩٧٦ م . وكانت خلافته ستة عشر عاما الا بضعة أشهر